حكايات ألف ليلة وليلة بعيون غربية
(دراسة نقدية/أناسية)

الأستاذ: حويلي نبيل
جامعة مولود معمري –تيزي وزو-
nabil.haouili@gmail.com

ملخص البحث

أسعى في مداخلتي إلى الوقوف عند حكايات ألف ليلة وليلة والبحث في أصولها ودراستها وفق مقاربة أناسية/نقدية وعرض محتواها كما سأترصّد مجموعة المستشرقين الذين بحثوا في غمار هذه الحكايات وترجماتها إلى اللّغات: اللاتينية، والفرنسية، والانجليزية، والألمانية، والإسبانية، والبرتغالية، والإيطالية، ومن ثمّ دراستها ومقارنتها بالحكايات العجيبة (les contes merveilleux) الأوروبية ولعلّ من أبرز هؤلاء المستشرقين: "جورج ماي" Georges (May)، "إيدجارد ويبر" (Edgar Weber)، "أنطوان جالند" (Antoine Galland)، "أندري ميكل" (André Miquel)،... وغيرهم من المستشرقين ممن ذاع صيتهم في الدراسات النقدية والمقارنة.

كما سأحاول الإجابة على مجموعة من التساؤلات أهمّها: ما طبيعة خطاب حكايات ألف ليلة وليلة حسب ما استخلصه المستشرقين خلال دراساتهم ؟ وكيف تمكّن هؤلاء المستشرقون من قراءة حكايات ألف ليلة وليلة؟ وهل كانت دراساتهم للحكايات محايدة أو موضوعية؟ وكيف خططوا لمجموعة السيناريوهات الإسكاتولوجية؟

OOO

مقدّمة:

يزخر الوطن العربي بموروث شعبيّ ضخم، وثقافةٍ شفويّةٍ راقيةٍ، أنتجتها التّراكمات الزّمنية المتلاحقة، والحقب التّاريخية المتعاقبة، فكانت نتاجاً حضارياً حتمياً لجهود جماعيّة وخبرات وتجارب مشتركة، ومن بين ذلك الموروث الشّعبي

الّذي يتداوله اللّسان العربي: حكايات ألف ليلة وليلة. وهي من أبرز الكتب القصصية الشعبية، التي لقيت رواجا عالميا وأثّرت بتأثيرات متنوّعة في الآداب العالمية مسرحا وشعرا، قصّة ورواية وقد ألهم هذا الكتاب الأدباء والفنانين بمادته الحكائية الغزيرة التي حوت غرائب وعجائب الأمصار، وتحوّل هذا النّص التراثي إلى امتداد العصور إلى نص ثقافي شامل وعالمي، تولّدت عنه نصوص عديدة وقدمت الليالي العربية في منظور ثري بالخيال والإبداع، فكانت العفاريت والسحرة والإباحية مفتاحا أساسيا لمعرفة الشرق في الذهن الغربي، وبالفعل فقد نقلت هذه الحكايات جانبا من جوانب الحياة الثقافية والاجتماعية في الشرق أثناء تلك الفترة. وهناك من يعتبر أن كتاب ألف ليلة وليلة، يمثل بدايات الطريق إلى الاستشراق وانتشار حركته في الغرب. ولم يحظ كتاب قديم بالاهتمام والتقدير كما حظيت به حكايات ألف ليلة وليلة، التي تبوأت مكانة مرموقة في السلم الأدب العالمي وأثرت في كثير من الأعمال الفنّية في العصر الحديث وتأسست عليها أعمال إبداعية كثيرة، وكان لها تأثير كبير في جلّ الأعمال الأدبية على المستوى المحلي والعالمي.

وسأسعى في مداخلتي الوقوف عند هذه الحكايات والبحث في أصولها ودراستها وفق مقاربة أناسية/نقدية وعرض محتواها كما سأترصّد مجموعة المستشرقين الذين بحثوا في غمار هذه الحكايات وترجمتها إلى اللّغات: اللاتينية، والفرنسية، والانجليزية، والألمانية، والإسبانية، والبرتغالية، والإيطالية، ومن ثمّ دراستها ومقارنتها بالحكايات العجيبة (les contes merveilleux) الأوروبية ولعلّ من أبرز هؤلاء المستشرقين: "جورج ماي" (Georges May)، "إيدجارد ويبر" (Edgar Weber)، "أنطوان جالند" (Antoine Galland)، "أندري ميكل" (André Miquel)،... وغيرهم من المستشرقين ممن ذاع صيتهم في الدراسات النقدية والمقارنة. كما سأحاول الإجابة على مجموعة من التساؤلات أهمّها: ما طبيعة خطاب حكايات ألف ليلة وليلة والّذي استخلصه المستشرقين خلال دراساتهم ؟ كيف تمكّن هؤلاء المستشرقين من قراءة حكايات ألف ليلة وليلة؟ هل كانت دراساتهم للحكايات محايدة أو موضوعية؟ وكيف صنع المستشرق من كل هذا الدأب آراءه وخطط لمجموعة السيناريوهات الإسكاتولوجية؟

تحديد المصطلحات:

1.1- مصطلح الاستشراق:

الاستشراق تعبير يدل على الاتجاه نحو الشرق، ويطلق على كل من يبحث في أمور الشرقيين وثقافتهم وتاريخهم. ويقصد به ذلك التيار الفكري الذي يتمثل في إجراء الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي.[1]

والاستشراق أيضا مظهر من مظاهر صلة الغرب بالشرق، وهو نتاج لهذه الصلة وتنبعث عنه حقيقتان، الأولى أن تنوع صلات الغرب بالشرق قد فرض بدوره تنوع الاستشراق فأصبح لدينا استشراقاً سياسياً يعبر عن مصالح الغرب السياسية والاستعمارية، واستشراقاً دينياً يترجم دوافع التبشير، واستشراقاً أدبياً يستلهم فيه بعض الأدباء سحر الشرق وغرابته، واستشراقاً أكاديمياً جعل المعرفة همه الأساس ، ولذلك فإن دراسة الاستشراق تتطلب من الدارس أو الباحث أن يضع نصب عينه هذه الحقيقة.

2.1- التعريف اللّغوي:

لو أرجعنا هـذه الكلمة إلى أصلها لوجدناها مأخوذة من كلمة إشراق ثم أضيف إليها ثلاثة حروف هي الألف والسين والتاء، ومعناها طلب النور والهداية والضياء، والإشراق من الشرق حيث نزلت الديانات الثلاث اليهودية والنصرانية والإسلام. ولما كان الإسلام هو الدين الغالب فأصبح معنى الاستشراق البحث عن معرفة الإسلام والمسلمين وبلاد المسلمين عقيدة وشريعة وتاريخاً ومجتمعاً وتراثاً...الخ.[2]

3.1- التعريف عند الغربيين:

ومع أن مصطلح الاستشراق ظهر في الغرب منذ قرنين من الزمان على تفاوت بسيط بالنسبة للمعاجم الأوروبية المختلفة، لكن الأمر المتيقن أن البحث في لغات الشرق وأديانه وبخاصة الإسلام قد ظهر قبل ذلك بكثير، ولعل كلمة مستشرق قد ظهرت قبل مصطلح استشراق، فهذا "آربري" Arberry في بحث له في هذا الموضوع يقول "والمدلول الأصلي لاصطلاح (مستشرق) كان في سنة 1638 أحد أعضاء الكنيسة الشرقية أو اليونانية" وفي سنة 1691 وصف "آنتوني وود" Anthony Wood صمويل كلارك Samuel Clarke بأنه (استشراقي نابه) يعنى ذلك أنه عرف بعض اللغات الشرقية. و"بيرون" في تعليقاته على Childe Harold's Pilgrimage يتحدث عن المسترق

"ثورنتون" وإلماعاته الكثيرة الدالة على استشراق عميق"[3]. ومما لا ريب فيه أن الاستشراق ظاهرة فكرية لعبت دورا خطيرا في الفكر والأدب العربيين قديما وحديثا، فقديما أخذ الاستشراق العلوم والآداب والفنون عن العرب، ونقلها إلى الغرب حيث أقام نهضته العارمة على دعائمها، وبلغ ما بلغه الآن من التقدّم والرقي والازدهار، وحديثا أخذ الاستشراق الأفكار والنظريات، والآراء الغربية المؤسسة على ثقافة العرب فردّها إليهم مؤثرا بذلك في نهضتهم المعاصرة أبلغ التأثر. [4]

1- مصطلح الحكاية:

لقد تكوّنت الحكاية في الأصل من حياة الشعوب ومن تصوراتهم ومعتقداتهم، ثمّ تطوّرت هذه الأخبار واتخذت شكلا فنيّا على يد القاص الشعبي، وأصبحت لها قواعد وأصول محدّدة. وقبل أن نشرع في تعريف الحكاية عند مجموعة من المتخصصين لا بأس أن نحدّد مصطلح الخرافة. يقول "محمّد الجويلي":«الخراف هو عبارة عن هذيان لا معنى له واشتقاقه يدلّ على ذلك، ففعل "خرّف" في العامية الشّعبية عادة ما ينعت به الخطاب العجوز الّذي وصل إل سنّ متقدّم، لا يتحدّث إلى كلاما مفكّك غير مفهوم وهراء أجوف لا طائل منه»[5] "إنّ الحكاية الخرافية الشعبية شكل أدبي تلتقي فيه ظاهرتان للطبيعة الإنسانية، ظاهرة الميل إلى الشيء العجيب، وظاهرة الميل إلى الشيء الصادق والطبيعي، فحيث تلتقي هاتان الظاهرتان توجد الحكاية الخرافية"[6] ويغلب على الحكاية الأسلوب الشفوي، والبسيط كما يعتمد على التكرارات.[7] ولقد ألحّ الشقيقان "يعقوب ووليم جريم" بأن يُبقي الدارس نص الحكاية على حاله دون تغيير تماما كما يحافظ على الدين. كما أنّ أغلب الباحثين الفولكلوريين يشدّدون على إبقاء النّص على حاله[8] لقد أبدع الإنسان الحكاية عندما كان يبحث لنفسه عن ملجأ يقيه هموم الدّنيا وقسوتها لذا فإن أصل ظهور هذا الشكل من أشكال التّعبير في الأدب الشعبي لا يكاد يعرف أصله وبل يعود إلى أزمنة بعيدة من البشرية الأولى.[9] يقول "عبد الحميد بورايو": "الحكاية الشعبية شكل قصصي يتّخذ مادته من الواقع النّفسي والاجتماعي الّذي يعيشه الشعب"[10] بينما يرى "مارسيل موس": "أنّ الحكاية في حقيقة الأمر نصٌّ أُعدّ ليكون مكررا، كما أُعدّ أيضا ليكون مسموعا".[11]

أمّا "نبيلة إبراهيم" فتعرّف الحكاية الشعبية على أنّها:« قصّة نسجها الخيال الشّعبي، تدور مواضيعها حول أحداث معيّنة ومهمّة، يستمتع الشّعب

بروايتها والإنصات إليها إلى درجة أنّها تتناقل جيلا عن جيل عن طريق الرّواية الشّفوية».[12]

2- رحلة قصص ألف ليلة وليلة مِنْ العربية إلى اللُّغات الأوروبية:

يعد كتاب (ألف ليلة وليلة) من أبرز ألوان الإبداع الذي ألهب خيالات الأدباء والفنانين، على اختلاف أدوات التعبير التي يشتغلون عليها، ذلك في الغرب والشرق، على حد سواء. إذ وضع هؤلاء، وبتأثير "الليالي"، عدة أعمال فنيّة وأدبيّة، اتسم بعضها بالموضوعيّة الإبداعيّة المحروسة بالرصانة التخيليّة الساحرة، بينما حمل بعضها الآخر (لا سيما في الغرب الأوروبي)، صورا سلبية عن الشرق ونشأته وأساطيره وسلاطينه، بفعل جملة عوامل وأحداث ودوافع.

أثار موضوع كتاب ألف ليلة وليلة، وانعكاساته على الفنون التشكيليّة والأدب والمسرح والموسيقى والسينما، وكذلك بقية أجناس وضروب الإبداع، أثار حفيظة عدة باحثين وأدباء وفنانين، فوضعوا كتباً ورسائل وأبحاثاً وأعمالاً إبداعيّة، حول التأثيرات الهامة والبيّنة، لكتاب ألف ليلة وليلة على طيف واسع من الإبداعات المعاصرة في الغرب والشرق، سواء بشكل مباشر، أو غير مباشر. وبعض هذه الدراسات أخذ طريقه إلى النشر، بينما لا يزال الآخر، حبيس أدراج مكتبات أصحابها، وهو ما يقلل من فائدتها ويعوق قدرة كثير من المهتمين بهذه الموضوعات، على الاستفادة منها، خصوصاً إذا علمنا أن بعض هذه الدراسات والأبحاث، أمضى واضعوه، ردحاً طويلاً من الزمن، في الإعداد لمفرداته ومساقاته، إذ ركزوا على تجميع مراجع هذه القيمة الأدبية التراثية، وتقصي تأثيراتها على الإبداع الفني ومبدعيه.

لعلّ السجال الدائر في بعض الدوائر الثقافيّة في عالمنا العربي حول مضمون قصص ألف ليلة وليلة يدفعنا لاستجلاء أثر هذه القصص في الأدب الغربي والدوافع وراء هذا الاهتمام، ويذكر محقّق هذا الكتاب الباحث المعروف محسن مهدي بأنّ "هذا الكتاب من أوائل ما طُبع من الكتب العربية في الهند والقاهرة وأوروبا فتهافت عليه الناس لما حواه من السحر الحلال، وسعة الخيال ورواء الصنعة، وتكالب عليه الأدباء والشعراء وصنّاع الألحان والرسم والنحت يسرقون معانيه، ويتشبهون بما فيه، ويستنبطون مغازيه، وتسابق إليه علماء الأساطير والخرافات يتتبعون أصله وأصوله التي عفا أثرها الزمان وأخفته

حوادث الدهر".[13] أمّا "محمد غنيمي هلال" فيتعرّض لأصول هذا الكتاب بقوله: «أما ألف ليلة وليلة فهي مدوّنة في عصور مختلفة ومن المقطوع به أنّ الكتاب في أصله كان معروفًا لدى المسلمين قبل منتصف القرن العاشر الميلادي، ويشهد المسعودي وابن القديم أنّ الكتاب في أصله مترجم عن الفارسية، ولكن "المسعودي" يقرر أنّ الأدباء في عهده تناولوا هذه الحكايات بالتنميق والتهذيب، وصنّفوا في معناها ما يشبهها».[14] وبعد ترجمة جالند لكتاب ألف ليلة وليلة، وما تلاها من ترجمات إلى مختلف اللغات الأوروبيّة، كثرت الرسوم التزيينيّة أو التوضيحيّة التي رافقت معظم طبعات هذه الترجمات، والتي عكف على وضعها رسامون ومصوّرون ونحاتون. ولعلّ من أبرز الأوروبيين ترجمة لحكايات ألف ليلة وليلة الفرنسيون ويقودهم: "جورج ماي" (Georges May)، "إيدجارد ويبر" (Edgar Weber)، "أنطوان جالند" (Antoine Galland)، "أندري ميكل" (André Miquel)،... أما في روسيا فيعود الفضل إلى المستعرب "ميخائيل ساليه" في انجاز الترجمة الكاملة لحكايات ألف ليلة وليلة إلى اللّغة الروسية. **المقاربة بين حكايات الليالي والحكايات الشعبيّة الأوروبية:**

1.4- التشكيل وحكايا الليالي:

تكشف لنا، عملية تمحيص ومسح شاملين حول الموضوعات التي استلهمها التشكيل العالمي المعاصر من الليالي، مدى غوصها في وجدان النفس، وتعمقها في الزمن المنتهي والباقي في نسيج توليفته ضمن مضمون الحداثة في الراوية. وهذه الصور أو التصورات التشكيليّة، عن حكايا الليالي، تأتي لنا من فوق اللاواقع، لتمارس علينا فوضى التصور، وتدفع التشويق إلى الاضطراب الحسي، فتخلق معها حالة من السوريالّية الإيقاعيّة، وفعل تجريدي. وهكذا تبدو «ألف ليلة وليلة»، باعتبارها مجموعة من اللّوحات التشكيليّة المصوّرة، عنصراً أدبياً وقصصياً على حد تعبير المتخصص في هذا الحقل، الدكتور إبراهيم جابر.

وبمعنى آخر: الليالي شبيهة بالأحلام التي تنتهي مع بزوغ شمس الرؤيا والحقيقة الواقعة، وهي دعوة من نوع آخر إلى المغامرة، حيث الغامض والملوّن والمثير، وهي أكثر طرباً من المعرفة، إذ يتملك السحر كل دوائر الجذب الحسيّة.

تلفها الرياح الحارة فوق رمال من ذهب وسجادات عربيّة، وتتوق إلى عوالم خاصة في وقع العقل الملونة، بصبح شرقي، عن أحاديث «ألف ليلة وليلة»، هذا المؤلف الضخم في تاريخ الأدب الشعبي، الذي لم يعرف إلى اليوم، حدوداً لزمان ومكان يعبر ببساطة السحر كل المسافات المتفاوتة للعقل البشري وتوارثته الأجيال كافة، منذ روته ابنة المدينة لمليكها، وخطته السنون على رقاق عربيّة. وهذا الموروث، يجسد حب الأرض ويعكس حكايات الأزمنة العتيقة، حيث كان للحلم والفرح نكهة خاصة، ومتعة مختلفة، وكذا جمال آخر.

2.4- التشابه:

في العدد الحادي عشر من مجلة "فكر وفن" التي تصدر في ألمانيا الغربية باللّغة العربية، مقال للأستاذ المستشرق "أتوشبيس" تحت عنوان: "بصمات شرقية في الأدب الغربي"، وهو يعني بذلك القصص الشعبي بصفة خاصة، فيقول في هذا المقال: «لقد تمكنت أبحاث الحكايات الخرافية المقارنة التي بدأت منذ عهد الأخوين جريم، وخاصة أبحاث كولر، شوفان، دي بولته، باكوسكان، فسيلسكي، وغيرهم،...لقد تمكنت هذه الدراسات من إرجاع مجموعة من حكايات الأطفال والبيوت التي قدّمها الأخوان جريم إلى أصول عربية، وقد جمع "بولتيه" و"بوليفكا" في كتابهما الفريد من نوعه، الحكايات المماثلة في الأدب العالمي لحكايات جريم الخرافية». ثم يستطرد الكاتب فيقول: «والعرب شعب مرح فكه محبّ للطرائف والنوادر، وقد بلغ تقديرهم لمعرفة الرّوايات والقصص حدّا يجعلهم يعتبرونها من فنون الأدب الرّفيع»[15] ولعلّ أن انتقال الإنسان من مكان إلى آخر واتصاله بغيره عامل يجعل انتشار القصص والحكايات والأساطير عبر أنحاء مختلفة من أرجاء المعمورة، ضف إلى ذلك تطوّر الفكر الإنساني، فالإنسان هو ذلك الكائن العاقل، وإذا كان الفكر أداة ومحتوى، فإن التفكير هو نشاط العقل وفاعليته والتي يقوم بها الجهاز العصبي المركزي.[16] لينتقل الإنسان من مرحلة التفكير الأسطوري والميتافيزيقي أي من ظاهرة تفسيره للظواهر الطبيعيّة إلى مرحلة الحكي والقص والتزفيه.[17] ويضيف "إدوارد سعيد" قائلا: "بنية الاستشراق ليست سوى بنية من الأكاذيب والأساطير التي ستذهب أدراج الرّيّاح إذا ما انقشعت الحقيقة المتعلّقة بها."[18]

3.4- حكايات التحوّل أو المسخ:

من الظواهر العديدة الّتي شدت انتباه الإنسان منذ أزمنة سحيقة، وجعلته يفكّر فيها باستمرار، ويبحث لها عن تفسيرات وتعليلات: المسخ أو التحوّل. نعني بالمسخ التحوّل والانتقال من صورة إلى أخرى، ولئن كانت هذه العملية بكلّ تميّزها وتفرّدها تبعث على الدّهشة والتعجّب تارة، والرّغبة الملحّة في تجربتها والتمكّن من آلياتها تارة أخرى، لذلك فلقد تعدّدت المفاهيم والرؤى حول موضوع المسخ أو التحوّل، وأجمعت جلّ المعاجم العربية منها والأجنبية على فكرة الانتقال من الصّورة الإنسانية إلى الصّورة الحيوانية.[19] وورد في كتاب "أفيد" أن المسخ هو "تحويل من صورة إلى صورة أقبح منها".[20] ويمكننا أن نستنتج من قصص ألف ليلة وليلة نوعين:

النّوع الأوّل: ويكون إراديا تختصّ به الكائنات الغيبية والماورائية كالجنّ والعفاريت، وكذلك بعض البشر من السحرة والمشعوذين حيث يتمّ المسخ بسهولة وسلاسة، فيغيّر المخلوق نفسه من صورة إلى أخرى دون الحاجة إلى تفسير الظاهرة.[21] ففي حكاية "الحمال والبنات"، نجد العفريت يبحث عن الصعلوك الثاني لينتقم منه، لأنّه اجتمع بفتاته الّتي استحوذ عليها ليلة زفافها واحتجزها في قبو تحت الأرض طيلة خمسة وعشرين سنة، ليقتلها ثم يأتيه في صورة أعجمي ويمسخه قردا، ثم إن هذا القرد يبحر رفقة جماعة من التجار باتجاه مدينة عظيمة. وعندما يكون بجوار ملك يعجب بخطّه الجميل، وتتعرّف عليه الأميرة وتخبر والدها بأنه إنسان ممسوخ سحره العفريت جرجيس إلى هذه الصورة. وتقرّر مساعدته ليجيئها العفريت في صورة أسد ليمنعها ويدخلان في صراع حاد. فتأخذ شعرة من رأسها وتهمهم فيها لتتحوّل إلى سيف شقّت به الأسد إلى نصفين، فصارت عقربا وانقلبت الصبية حية عظيمة، ثمّ العفريت عقابا وانقلبت نسرا، وصارت وراء العقاب، واستمرّا فترة طويلة من الزّمن،... أمّا في ألمانيا فهناك من الحكايات الشعبيّة التي جمعها وصنّفها الأخوان "جريم" ومنها ما يرويانه عن ألسنة شعبيّة: "أنّه في وقت مضى ثمّة جنّ يسكن في غابة كثيفة رفقة فتاة من جنس البشر، وبينما هو خارج البيت، جاء رجل من بني آدم ودخل على الفتاة التي كانت ذات جمال فتان وارتبط بها. ولما عاد العفريت شم رائحة الإنسان فاستفسر الأمر من حبيبته التي أخبرته ما كان بينها وبين الإنسي، فأخذ يطارده ولما أمسك به حوّله إلى قرد. وأخذ الرجل الممسوخ إلى قرد يسير ويتسلّق الأشجار حتّى وصل الأمر به إلى سفينة ليبحر مع طاقمها

إلى بلاد الهند أين تعرّفت الأميرة على حقيقته البشرية وطلبت من القديس أن يرجعه إلى هيئته الأصلية فصار شابا وسيما فأعجبت بجماله وبسالته وتزوّجت به".[22]

أمّا النّوع الثاني مثل تلك الحكاية التي يكون فيها العقاب مؤقتا ودوريا، وترتبط بالنوازع النفسية كالغيرة والحسد،...وغالبا ما ينجو ضحاياها من سحر العفاريت والسحرة وبالتالي يعودون إلى صورتهم الأصلية. فالغيرة والحسد دفعا زوجتي الشيخ الأوّل والثاني في قصّة "التاجر والعفريت" لاستعمال السّحر. إذ سحرت الأولى غريمتها بقرة وابنها عجلا، لأنّها أحسّت بأنّها أصبحت مهمشة وعاجزة ومسنّة، بينما تتمتّع الغريمة بالشباب والنضارة والقدرة على الإنجاب. أمّا الثانية فكانت عفريتة طلبت من شقيقتها تحويل شقيقتي زوجها إلى كلبتين، لأنّهما حاولا قتله وأخذ ماله، على الرغم من أنّه اقتسم ماله معهما لكن الجشع والطمع دفعهما لطلب المزيد.[23]

4.4- الاستشراق السلبي في حكايات ألف ليلة وليلة:

الاستشراق معرفة ينتجها غير الشرقي عن الشرق، تحفزه على ذلك المواجهة بين مجتمعه أو قومه أو دولته أو إمبراطوريته أو جماعته الدينية من جهة والشرق من جهة أخرى. ومعنى هذا أن تاريخ هذه المعرفة مرتبط على نحو عضوي بتلك المواجهة. والاستشراق خطاب أو إنشاء، لكنّه خطاب لا يعكس حقائق أو وقائع، بل يصوّر تمثلات أو ألوانا من التمثيل حيث تختفي القوّة والمؤسسة والمصلحة.[24]

اتّخذ المستشرقون من ألف ليلة وليلة فرصة لنقل ومضات عن الحياة الاجتماعية للعرب، وإذا تتبّعنا الدّراسات والبحوث التي بشأنها ندرك أن المستشرقين الذين نقلوا هذه الحكايات جعلوها لنا زادا، واتّخذوها –هم- مصدر الدراسات للمجتمع الإسلامي في عصوره الناهضة الواعدة، فجعلوا ما في هذه الأقاصيص من خرافات هي الصّورة الحقيقية للمجتمعات الإسلامية. لذا صارت هذه الحكايات معين الدارسين، منها يأخذون تاريخهم ومن وحيها يرسمون صورة أجدادهم، وآبائهم.[25] وما نتأسّف عنه أنه ثمّة أمثلة واقعية تشين إلى حقيقة توظيف هذه الحكايات في حياتنا اليوميّة:

أنّ أستاذا جامعيا ممن انعقد لهم لواء الريادة في مجال الفكر والتربية، وصياغة العقول، عقول شبابنا وأجيالنا المقبلة، صرخ ذات حديث عن التراث وهو يتأفّف ويكاد يصاب بالغثيان: "أتريدوننا أن نعيد ليالي بغداد وهارون الرشيد".

وآخر يقول، وهو في نشوة الإعجاب بنفسه الرّاضي عن واقعه كل الرضا، شاعرا أنّه مفكّر العصر والأوان، إذ يقول: "كان هارون الرشيد إذا صعد على الدرج في قصره، يصطف له صفّان من العذاري على الجانبين، وهن عاريات الصدور متعطرات متبرجات بزينة، حتّى يتكئ بيدّه على النهود".

تسري سموم ألف ليلة وليلة وتقتل في بطء، وتفتك على مهل، وبدون أن تترك أثرا، ولو أردت أن تعرف مدى احتفاء هؤلاء بهذه الحكايات، فانظر دائرة المعرف الإسلامية لترى أنّهم كتبوا عنها 35 صفحة كاملة. وكتب "أحمد بهجت" في صحيفة الأهرام في صحيفة الأهرام على لسان تلميذة تشكو من تكليفها لقراءة كتاب الليالي واطلاعها على ما فيه من فحش يخدش الحياء.

ومن الحكايات التي تتحدّث عن منظومة جنسية موتيف الخيانة والخديعة ما نجده في قصّة "الصياد والعفريت"، حيث أنّ أميرا يكتشف مصادفة خيانة زوجته له مع عبد أسود، لينتقم منه بضربة من سيفه جعلته يتأرجح بين الحياة والموت، في حين أنّه غضّ الطرف عن خطيئة زوجته، لأنّ حبّه لها وقرابتها شفعتا لها عنده.[26] وفي فرنسا هناك ما يشبه هذه الحكاية. تقول الحكاية: "أنّه في يوم من أيّام الشّتاء الباردة توجّهت زوجة فلاح جميلة الشكل إلى الكنيسة، فدخلت غرفة الاعترافات لتطلب الذود والعفو من القديس. ولما رآها بذلك الحسن والجمال امتثل أمامها وأغواها وأقام معها علاقة غير شرعية، وما أن أكملا حتّى دخل زوجها الذي كان رجلا أنيقا وحسن المنظر ولكن كان في حقيقة الأمر جنيّا شيطانيّا، فأخذ المنجل وقتل القديس، أمّا زوجته فلم يقتلها لأنّه كان يحسّ بالضّعف اتجاهها فهو متيّم بحبّها.[27] وكتب "ريتشارد بورتون" معلقا على الظاهرة الجنسية في كتاب ألف ليلة وليلة: "إن الحريم الإسلامي هو المدرسة الأولى لتعليم حب السحاق"، ويكتب أيضا قائلا: "أنّه عندما كنت في الهند أذكر أن مسلما هنديا ورع لم يكن يصطحب زوجته إلى زنجبار خشية أن تقع في الإغواءات والإغراءات الكثيرة هناك". وما يعينه "برونون" هو أن هؤلاء النسوة كن يفضلن بشكل دائم الزنوج من الرجال لأنّهن كن شهوانيات إلى حدّ لا يمكن تخيّله.[28]

ومما نلحظه في هذه النّصوص المختارة تواجد العلاقة غير الشرعيّة وأعني هنا العلاقات الجنسية التي تظهر الرّغبة الجنسية مبكرا و ذلك قبل احتمال اكتمالها البيولوجي والإلحاح واستدامة الرّغبة الجنسية والّتي تكون في فترات متباينة.[29]

ومن الأمور الشائعة أيضا في الغريزة الجنسية أنها مفتقدة في سن الطفولة

وأنّها تنبعث أوّلا في فترة من فترات الحياة تعرف بالبلوغ، ولكن تكشف لنا الدّراسات الجنسيّة العميقة نمو الغريزة الجنسية بمرور الزمن.[30] غير أن المجتمع الإسلامي هو غير الذي في الغرب فالعلاقة المباحة هي التي تكون بين الطرفين فالجنس بمنظومة القيم الإنسانية، عملية ذات طابع غريزي وترتقي إلى الأبعاد السّامية الّتي أرادها الخالق لمخلوقاته. وتهدف الممارسة الجنسية إلى التوالد والتكاثر للحفاظ على سلالة الإنسان ولقد كرّم الله عباده حين جعل هذه العملية متعة للطرفين، وجعل مكامن المتعة فيها شاملة للجسد وللرُّوح معاً، وصان الله كرامة الإنسان حين شرّع إطارا لهذا اللّقاء في المؤسسة الزّوجية المباركة. والمرأة بذلك كانت الوسيلة الأولى للأغراض الجنسية، ومن جهة أخرى امتد الهجوم الاستشراقي على دراسة وضعية المرأة المسلمة، فاتهموها بأنّها أسيرة الرّجل، وبأنّها لا تتمتّع بالحقوق والحريات، وليست لها شخصية مستقلّة عن الرّجل فهي بالتالي: عضو عاطل داخل المجتمع.

ويركّز النّقد الاستشراقي على ضرورة المساواة بين الرّجل والمرأة، وتحض الدراسات الاستشراقية المرأة المسلمة على الثورة والتمرّد على وضعها في المجتمع المسلم، والمطالبة بحقوقها والتشبّه بالمرأة الغربية، ولقد تأثّر بهذه الدعوة الاستشراقية مجموعة من المفكرين المسلمين.[31]

ويرى الدكتور محمد خليفة "أن موقف الاستشراق من المرأة المسلمة نابع من وقوعه "تحت تـأثير وضع المرأة الغربية أنها نموذج يجب أن يحتذي به، وأن ما حققته من مساواة وحقوق، في نظرهم، يجب أن يتسع ليشمل المرأة المسلمة والمرأة الشرقية العامة. ويضيف خليفة بأن الاستشراق يسعى "إلى تقويض وضع المرأة المسلمة داخل الأسرة على التمرد على النظام والخروج باسم الحرية[32]." ولئن كان الأمر بهذا الشكل فإن المجتمع الإسلامي سيتحوّل إلى خراب أكيد ذلك أن تعاليم الإسلام هي غير التي يتعامل بها الغرب فالاستشراق يخطئ حين ينظر إلى المرأة في الإسلام في ضوء المرأة في الغرب، فلكلّ مجتمع أصوله وتقاليده وطقوسه اكتسبها ومن ثمّ توارثها جيلا عن جيل لتصل إليه عبر جسر طويل المدى انبعث من تاريخ وأصل عميق يعود إلى أمد بعيد كان يتوغل في الوجدان الإنسانية.

ويرى أحد الباحثين "أنّه إذا كان الاستشراق قد مثّل في رأيه الخطوة الأولى نحو توجه الغرب إلى رؤوس العرب والمسلمين -وهي الخطوة الأولى التي مهدت إلى ما نواجهه الآن من غزو ثقافي- فإنّه يجب التأكيد على نقطة هي: أن بعض

من أتيح لهم من أبناء العرب والمسلمين أن يكونوا في الصف الأول من الساحة الفكرية والثقافية، تقع عليهم مسؤولية كبيرة في تشويه جوانب كثيرة من الفكر والثقافة الإسلامية"[33].

مستخلصات العرض: من جملة مستخلصات العرض ما يلي:

- تتدرج ألف ليلة وليلة في سياق الحكاية الخرافية، أو الحكاية الشعبيّة بشكل عام، والتي تعكس (فيما تعكسه)، الأساطير وبقايا قوى عوالمها وخبراتها القادمة من زمن بعيد الأمد، إنّها تمتاز بكثير من العفوية والتلقائيّة والسذاجة المتصالحة مع نفسها، وهو الأمر الذي يدفعنا للتأكيد على أن الحكاية الشعبيّة أو الخرافيّة، ليست ثرثرة عجائز ولا منطق لها. وتالياً هي لا تمثل اختراعاً صرفاً، وإنما تجسد روح الشعب ونتاج قواه الشاعريّة، ومن ثم، ترسخ بمثابة قوام ملكه وتراثه وتاريخه.
- أثرت حكايات « ألف ليلة وليلة»، على الفعل الإبداعي العالمي بشكل قوي وفاعل، فطال ذلك، حقول: الشعر والمسرح والأدب والفن. وكذلك اللغات الأجنبيّة المختلفة، كالفرنسيّة والألمانيّة والانجليزيّة والإيطاليّة، إضافة إلى السينما والتلفزيون والموسيقى والفنون التشكيليّة والصحافة المقروءة.
- تعد «الليالي» في خصوصيتها الإبداعيّة، صيغة وروح إلهام، تقوى جذوتها في كل زمان ومكان، وتتعمق معايشتها مع كل مجتمع ـ باعتبارها حكايات متنوعة لها أشكالها المختلفة، بين الصراع على وتيرة النقيضين، كما تمتد أيضاً، إلى بداية التغيرات الظاهريّة لهذا الواقع، والكشف عن الدور الجوهري للنفس الإنسانية.
- يبدو أن الخطاب الاستشراقي خطاب بلا بصيرة، تقدم بلاغته حسن البصر غير المحايد، البصر عبر موقع لا يخدم إلا رؤية مشوشة، بهدف محو الموضوع الغيرية من اللقطة.
- يبدو أنّ بنية الاستشراق ليست سوى بنية من الأكاذيب والأساطير التي ستذهب أدراج الرّيّاح إذا ما انقشعت الحقيقة المتعلّقة بها.

- لكن نحن لا ننكر أن البعض من المستشرقين كانوا منصفين إلى حد ما في استنتاجاتهم وآرائهم ،ولكن وجود مثل هذه الأقلية لا يبرر أن نثق ونطمئن بشكل مطلق إلى النتائج التي عرضوها ، فحتى هؤلاء العلماء لم يكونوا منصفين بنسب متساوية في جميع الموضوعات التي تطرقوا إليها.
- الاستشراق في الليالي خطاب أو إنشاء، لكنّه خطاب لا يعكس حقائق أو وقائع، بل يصوّر تمثلات أو ألوانا من التمثيل حيث تختفي القوّة والمؤسسة والمصلحة.
- ومما لا ريب فيه أن الاستشراق ظاهرة فكرية لعبت دورا خطيرا في الفكر والأدب العربيين قديما وحديثا، فقديما أخذ الاستشراق العلوم والآداب والفنون عن العرب، ونقلها إلى الغرب حيث أقام نهضته العارمة على دعائمها، وبلغ ما بلغه الآن من التقدّم والرقي والازدهار، وحديثا أخذ الاستشراق الأفكار والنظريات، والآراء الغربية المؤسسة على ثقافة العرب فردّها إليهم مؤثرا بذلك في نهضتهم المعاصرة أبلغ التأثر.

الإحـــــــالات :

[1] من تأليف وإعداد جماعة من كبار اللغويين العرب، لاروس المعجم العربي الأساسي المنظّمة العربية للتربية والثقافة والعلوم/أليسكو، باريس، 1989، ص 661.

[2] جورج سارطون، الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، تر: عمر فروخ، مكتبة المعارف، بيروت، 1952، ص95.

[3] ج.آربري، المستشرقون البريطانيون، تر: محمد الدسوقي النويهي، وليم كولينز، لندن، 1946، ص8.

[4] أحمد سمايلوفتش، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، مكتبة الإسكندرية، ط 1، 1973، ص 6.

[5] محمد الجويلي، أنتروبولوجيا الحكاية (دراسة أنتروبولوجية في حكايات شعبية تونسيّة)، مطبعة تونس قرطاج، تونس، 2002، ص 61.

[6] André Jolles: Formes simples، traduction : Antoine Marie Buguet، Seuil، Paris، 1972، p 230

[7] حورية بن سالم، الحكاية الشعبية في منطقة بجاية، دار هومه، د ط، الجزائر، 2010، ص ص 49-51.

[8] ألكسندر كراب، علم الفولكلور، ترجمة: أحمد رشدي صالح، دار الكتاب العربي، د ط، 1967، ص 75.

[9] عمر عبد الرحمن الساريسي، الحكاية الشعبية في المجتمع الفلسطيني، المؤسسة العربية للدراسات و النّشر، ط 1، بيروت، 1980، ص 17.

[10] عبد الحميد بورايو، القصص الشعي في منطقة بسكرة (دراسة ميدانية)، وزارة الثقافة، د ط، الجزائر، 2007، ص 118

[11] Marcel Mauss، Manuel d'ethnographie، Payot، Paris، 1947، p 204.

[12] نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعي، دار غريب، د ط، القاهرة، د ت، ص 79-83.

[13] أنظر: كتاب ألف ليلة وليلة من أصوله العربية الأولى، حقّقه وقدّم له محسن مهدي، مطابع، ا.ي بريل للنشر لندن، 1984، ص12.

[14] محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، دار نهضة للطبع والنشر، ط3، القاهرة، ص 215.

[15] نبيلة إبراهيم، الدراسات الشعبية بين النظرية والتطبيق، المكتبة الأكاديمية، ط 1، القاهرة، 1994، ص 207.

[16] إسحاق محمّد ربّاح، دراسات في تاريخ الفكر العربي، دار كنوز المعرفة، ط 1، عمان، 2009، ص 53.

[17] مصطفى غنيمات، الحضارة والفكر العالمي، عالم الثقافة للنّشر والتوزيع، عمان، 2005، ص 63.

[18] إدوارد سعيد، الاستشراق، تر: كمال أبو ديب، ط 2، بيروت، 1984، ص 41.

[19] ماجدة بن عميرة، التمظهرات الموضوعاتية لأسطورة التحول في كتاب اللّيالي، منشورات مخبر الأدب المقارن، أعمال ملتقى الأدب والأسطورة، عنابة، 2007، ص 36-37.

[20] Voir : Ovide، Les Métamorphoses، Castor poche، Paris، 2003.

[21] أميمه أبو بكر، المسخ في ألف ليلة وليلة، مجلة الفصول، المجلد 13، العدد 1، القاهرة، 1994، ص 241.

[22] W. et J. Grimm، Les contes Grimm، traduction : Antoine de Fleur-ville، Gallimard، Paris، 1997، pp 213-214.

[23] ألف ليلة وليلة، سلسلة الأنيس الأدبية، موفم للنّشر، الجزائر، 1994، ص ص 63-65.

[24] عبد العظيم الديب، المستشرقون والتّراث، الوفاء للطباعة والنّشر، ط 3، المنصورة، 1992، ص 19.

[25] سالم يفوت، حفريات الاستشراق في نقد العقل الاستشراقي، المركز الثقافي العربي، ط 1، الدار البيضاء/بيروت، 1989، ص 8.

[26] ألف ليلة وليلة، المرجع السابق، ص 67.

[27] Paul Delarue، Le conte populaire Français، tome 1، Erasme، Paris، 1957، pp 344-345.

[28] وليد منير، نقد خطاب الاستشراق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2009، ص 131.

[29] إيفان كونج، السّحر والسحرة عند الفراعنة، تر: فاطمة عبد الله محمود، الهيئة المصرية العامة لكتاب، د ط، القاهرة، 1999، ص 156.

[30] ينظر، مصطفى غالب، الجنس عند فرويد، منشورات دار مكتبة الهلال، الطبعة الأخيرة، بيروت، 2000، ص 61.

[31] محمّد خليفة حسن، آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية، عين للدّراسات والبحوث ، ط1، القاهرة، 1998، ص ص 65-66.

[32] الطيّب تيزيني، من الاستشراق الغربي إلى الاستشراق المغربي، دار الذاكرة/حمص، دار المجد/دمشق، ط1، 1996، ص87.

[33] أحمد عبد الرحيم السايح، الاستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي، الدار المصرية اللّبنانية، ط 1، القاهرة، 1996، ص ص157-158